

بدايات اهتمام الغرب بالمشرق العربي

بمصطفى نجيب فواز(*)

إن حضارة عصرنا الموسوم بالثورة العلمية والتكنولوجية، لا يمكن اعتبارها حضارة بحد ذاتها منفصلة عمّا سبقها من نهوض وثورات علمية وفكرية، بل هي ما توصلنا إليه عن طريق تمازج حضارات سابقة مختلفة. وتبرز الحضارة العربية بغناها الفكري والعلمي والفني، بالرغم من أن البعض يعتبرها فترة منسية في التاريخ، الأمر الذي يدفعنا إلى التساؤل: ما هو مفهومنا وتحديدنا لمعنى الحضارة؟

إن الحضارة هي نتاج تمازج الثقافات واللغات، وهذا التمازج يولّد تعبيراً موحّداً لها، ولغةً وهدفاً واحداً أيضاً.

يتّجه العرب اليوم نحو تبني العلوم والتمكّن من إضفاء خصائصهم على حضارة العصر، والنظرة إلى الآخرين، وتحسس عطاءاتهم الفكرية والسياسية مهمة في هذا الاتجاه؛ فالذي أعطى العرب قدرتهم على التميّز والتجديد، ليس كونهم شعباً جديداً، بل هو دخولهم التاريخ مع نزول القرآن الكريم الذي بتعاليمه تحدّى العرب بيئتهم وتاريخهم، وأبدعوا حضارة جديدة متميّزة عن الحضارات المعاصرة من بيزنطية وفارسية وهندية، وحتى حضارات غابرة أخرى.

لقد أعطى الإسلام أفقاً جديداً، تعدّى الشعر والأدب إلى قدرات سامية بهدف بناء الدولة الإسلامية، فبرع في توجهاته السياسية والحربية والاقتصادية والاجتماعية، وحقق نهضة عظيمة متفردة في التاريخ.

بانقضاء مئة عام فقط بعد النبي ﷺ توسع المسلمون ببناء دولة تمتد من حوض نهر اللوار في منطقة جبال الألب حتى الهند في آسيا. وكانت هذه النهضة وهذه الحضارة منفتحتين على غيرهما من الحضارات. ولم تترك الحضارة الإسلامية العربية التي بلغت

(*) أستاذ في الجامعة اللبنانية - كلية الآداب.

القمة بازدهارها وقيمها الفكرية والعلمية ناحية إلا وقد طرقتها، أو فناً من فنون الفكر والعلم إلا وتناولته⁽¹⁾؛ فلقد كان من البدهي أن يأخذ العرب من علوم الحضارات التي امتدت إليهم عبر فتوحاتهم ما يتعلق بحاجاتهم ويتصل بحياتهم⁽²⁾. فكيفوا ما اقتبسوه من هذه الحضارات، وفقاً لما تفرضه تقاليدهم وتعاليمهم، حتى إن معارف العرب قد وصلت قمة المجد في العهد العباسي. وفي هذا الصدد يقول المستشرق الإنكليزي هيل في كتابه الحضارة العربية: «أما أن المسلمين قد أسسوا مدارسهم للتعليم العام في بلاد العرب، وفي البلاد المفتوحة فهذا شيء ثابت، لا تستطيع الحضارات القديمة الأولى أن تباهي بشيء من مثله». ونشأت المدارس والمراكز العلمية في البصرة والكوفة والفسطاط والقيروان والرها ونصيبين وحران وجنديسابور، حيث دُرِّس النحو والفقه واللغة والرياضة، والطب والفلك.

من جهته، يذكر المؤرخ الهندي خوزا بخش في كتابه الحضارة الإسلامية: «إن العرب كانوا قادة العلوم، وكان لحكامهم وخلفائهم قلوب كبيرة وعقول متحررة، فقد كان اهتمامهم بالعلوم المسيحية يجعلهم على نقیض من القياصرة البيزنطيين المتعصبين ضيق الأفق».

وكانت مكتبات العرب تحوي كتباً نُقلت عن القبطية واليونانية والسريانية في الكيمياء والجغرافيا، وقد ذُكر أن أحد الحكام العرب خالد بن يزيد بن معاوية (ت 85هـ/ 704م) المسمّى حكيم آل مروان كلّف جماعة من اليونانيين من مدرسة الإسكندرية كي ينقلوا له الكتب التي تناولت البحث في صناعة الكيمياء العملية، كما طلب منهم أن يترجموا كتب جالينوس Galênos (نحو 131 - 201م) في الطب؛ هذا، ولئن رفض ابن خلدون (732 - 808هـ/ 1332 - 1406م) هذه المقولة فلاعتقاده بأنه لا يمكن أن تكون الترجمة في علم الكيمياء قد بدأت على هذا النحو مع مطلع القرن الثاني للهجرة؛ إذ إن الجانب المشرق من التاريخ الإسلامي يزهو به التاريخ العباسي كونه يمثل نضج الحضارة العربية الإسلامية، وبلوغها ذُرى الاكتمال؛ ففي العصر العباسي اكتسبت العلوم الإسلامية صفة الأصالة والابتكار، واتسعت دائرتها لتشمل مختلف العلوم التجريبية، فضلاً عن الدراسات اللغوية والفلسفة والتاريخ، وارتقى الفن العربي الإسلامي ليغدو آية خالدة في تاريخ الفنون.

واتسع نطاق التجارة⁽³⁾ بحيث جاب تجار المسلمين مشارق الأرض ومغاربها، ووصلت بضائع العالم الإسلامي ومصنوعاته وحصائله إلى أقصى شمال غرب أوروبا،

(1) حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام السياسي، ج 1، الطبعة السابعة، مكتبة النهضة المصرية، 1965م، ص 66، 67، 166.

(2) إدوارد سعيد: الاستشراق، ترجمة كمال أبو ديب، الطبعة الأولى، مؤسسة الأبحاث العربية، 1981م، بيروت، ص 35.

(3) Maurice Grouzet: Histoire générale des civilisations, P.U.F., Paris, 1967, p. 259-260.

وأصبحت الدولة الإسلامية واسطة التجارة بين الشرق والغرب عبر طريق البحر الأحمر، وطريق الشرق فيبغداد فأنطاكية على البحر المتوسط، وطريق الشمال عن طريق بلاد الروس، فبحر قزوين ثم مرو فبلغ فسمرقند ومنها إلى الصين والهند، وابعها الطريق البري عبر شمال إفريقيا فمصر والعراق وفارس، ومنها إلى الهند والصين.

وبدراسة هذه الطرق نجد أنها تمر جميعها بأراضي الدولة الإسلامية⁽⁴⁾. كذلك استخدم المسلمون الحوالات المالية، وعرفت أوروبا عنهما استخدامهما. أما عن المدن الإسلامية في تلك العصور وبخاصة بغداد فكانت راقية ومزدهرة، بما فيها من شوارع ومساجد وحمامات وبیمارستانات وكليات طب ومنزهات وأسواق وخانات وصناعات وعلماء وطلاب علم وشعراء وفلاسفة وفلكيين وجغرافيين وكيميائيين، إلخ. ومن خلال ذلك، ندرك حقيقة ما أصابته الدولة الإسلامية حينئذ من تقدم حضاري⁽⁵⁾، ترتب عليه ظهور طبقة السمار والندماء وبخاصة السميريات.

إن رغبتني وهدني ليتضحان في إبراز الفكر الإسلامي والعربي، لأبين أن العلاقات بين الشرق والغرب لا تقتصر فقط على مجالات عسكرية وسياسية⁽⁶⁾، بل إن هذه الجوانب كانت نتيجة وليست سبباً؛ فأساس الموضوع في هذه العلاقات قائم على الفكر والنتاج الإنسانيين والثروات الطبيعية، وهذه العلاقات تبرز على الشكل الآتي:

1 - اهتمام الغرب بالتراث العربي

اهتم الغرب والغربيون بالتراث والفكر العربي والإسلامي، وبدأت جحافلهم تغزو مكتباتنا وصوامعنا ومؤسساتنا العلمية والثقافية سواء قُرَآدى أو هيئات ومؤسسات، لتظهر من ثم بشكل منظم، وانكبوا على دراسة اللغة العربية في أوطانهم أو في شرقنا العربي والإسلامي عندما لمسوا ووجدوا الكنوز من مؤلفاتنا وتراثنا. فأنشأوا المدارس للطلاب العرب ولغير العرب من المهتمين بالنهل منها، كما شجع البابوات على تلقي العربية في مدرسة روما وسواها هادفين إلى توثيق العرى بينهم وبين الدارسين في شرقنا العربي، وأوعزوا إلى رجال الدين النصارى في الشرق لفتح المدارس وتشجيع دراسة العربية في بعض الاقطار العربية مثل لبنان وسوريا ومصر، حتى إن بعض ملوك أوروبا ساروا على المنهج نفسه؛ إذ شجّع الملك فرنسوا الأول على تدريس اللغة العربية في هيكل المعارف البشرية، وهو صرح تعليمي أقامه بعد اتفاقية الوفاق مع شارلكان راغباً في جعلها مركزاً لتعليم اللغات القديمة «اللاتينية واليونانية واللغات

(4) Marc Berge: *Les Arabes, Histoire et civilisation des Arabes et du monde musulman*, Édition lidis, Paris, 1978, p. 177-178-80.

(5) Maurice Grouzet: *Les xvle et xvllle siècles, Histoire Générale des civilisations*, P.U.F., Paris, 1967, p. 487-491-493.

(6) أحمد مختار العبّادي: *في التاريخ العباسي والأندلسي*، دار النهضة العربية، بيروت، 1972، ص 291 - 292 - 293.

السامية ومنها العربية»⁽⁷⁾.

2 - الإرساليات والمرسلون

بدأت أوروبا بإرسال المرسلين حاملين معهم تياراتهم السياسية والمذهبية محاولين نشر أفكارهم في بلادنا، هادفين إلى تأسيس مناطق نفوذ ديني وسياسي واجتماعي، فأحدثوا بعض المراكز الصحية والمؤسسات الاجتماعية لإيواء العجزة والأيتام والمعوزين والصم والبكم والحالات المَرَضِيَّة الصعبة وأنشأوا الجمعيات في العديد من المناطق العربية وأسسوا المطابع ودور النشر.

بدأ المرسلون وإرسالياتهم بغزو منظم منذ القرن السابع عشر حين فتح لهم فخر الدين المعني الثاني (1572 - 1635م) الأبواب على مَصَارِيْعها. وبنى علاقات خاصة متينة مع المدن الإيطالية، فكانت مدينة الناصرة البلدة العربية الأولى التي جُعِلَتْ مَقْرَأً لإحدى الإرساليات، وساعدهم فخر الدين بالأموال وأولاهم اهتمامه الخاص⁽⁸⁾، كما مَنَح المندوب دوايس الإقامة وأنشأ إرسالية له في جبل لبنان⁽⁹⁾. أما الآباء الكبوشيون، حسبما يقول غيز، فهم من الأوائل الذين استقروا في هذه المنطقة⁽¹⁰⁾، وقد طُردوا بعد موت فخر الدين بسبب الارتياح بسلوكيتهم وتحركاتهم الموجهة؛ فكان اليسوعيون بانتظارهم ليحلوا مكانهم، إضافة إلى الإرساليات البروتستانتية التي لم تكن أقل شأنًا من الإرساليات الكاثوليكية. إن بصمات الإرساليات كانت واضحة في الحركة الفكرية والاجتماعية؛ إذ كان رد الفعل عليها ظاهراً نوجزه باثنين، أحدهما سلبي، وثانيهما إيجابي، مما أطلق عليها «مناجم خير ودهاليز مظلمة».

ولا شك في أن حركة التعليم تأثرت في مناطق عربية عديدة، بما نقله المرسلون⁽¹¹⁾ بجنسياتهم المختلفة فأثرت على مناهجنا وأنظمتنا وسلوكياتنا واجتماعياتنا، وعلى الفن المعماري ومدنيتنا Urbanisme.

وقد تعدى نشاط المرسلين (أعني المناهج والمدارس والتعليم والتبشير) إلى جوانب أخرى كالطباعة والإعلام؛ فلقد حاول الأب جوزيف الكبوشي تنفيذ هذه السياسة في محاولته إنشاء مطبعة تهتم بالعربية والسريانية والعثمانية والفارسية حيث نجح اليسوعيون في ذلك⁽¹²⁾.

- (7) إلياس أبو شبكة: روابط الفكر والروح بين الشرق والغرب، الطبعة الثانية، بيروت، 1945، ص 32.
 (8) Jeanne Arcache: P'Emir a la croix: Fakchredine II Maan, Paris, 1947, p. 178-197.
 (9) IDM, p. 182-183.
 (10) هنري غيز: بيروت ولبنان منذ قرن ونصف القرن، ترجمة مارون عبود، ج 2، بيروت، 1950، ص 146.
 (11) جرجي زيدان: تاريخ آداب اللغة العربية، الجزء الرابع، مصر، 1937م، ص 37.
 (12) Jeanne Arcache: IDM, p. 185-186.

وهنا يحضرني قول محمد كردعلي في كتابه خطط الشام: «والعاقل من حرص على نفع أمته قبل نفع غيرها، وانتفع بما عنده قبل أن يتناول إلى ما عند غيره، ومن زهد في لغة آبائه وأجداده كان حرياً بالزهد في وطنه ووطنيته، واللغة والوطن يصح أن يكونا اسماً لمسمّى واحد»⁽¹³⁾.

3 - المدارس

وُجدت المدارس الأجنبية مع انتظام حركة التعليم في مشرقنا العربي منذ القرن السادس عشر تاريخ إنشاء مدرسة روما لتعليم العربية⁽¹⁴⁾، حيث تلقى العديد من اللبنانيين العلم في هذه المدرسة التي كانت تهدف إلى تعميم برامجها ومناهجها وأهدافها.

وحول هذا الأمر أصدر المجمع المقدس المنعقد سنة 1736م. إلى المطارنة والكهنة ورؤساء الأديرة وطلاب مدرسة روما، تعليمات⁽¹⁵⁾ جاء فيها:

«إننا نأمر بأن نفتح في المدن والقرى والأديرة مدارس يتلقى فيها الصبيان العلوم... إننا نحث المطارنة والكهنة ورؤساء الأديرة على التعاون في تعيين المعلمين، حيث تكون ثمة حاجة إليهم، وعلى تسجيل أسماء الصبيان القادرين على تحصيل العلم، وحمل أهلهم على أن يتوجهوا بهم إلى المدارس... إننا نأمر المعلمين بأن يتبعوا الخطة التالية: أن يعلّموا أولاً القراءة والكتابة في العربية والسريانية، ثم المزامير وخدمة القديس والعهد الجديد... على المعلمين الذين يُختارون من مدرسة روما أن يعلّموا الأولاد في المدارس، ويتقّفوا الأهلين في القرى المجاورة بكلام الرب...».

يأتي هذا النص خير دليل على أهمية هذه المرحلة من تاريخ وطننا العربي، وتأثير العلاقات في الشرق من الغرب، وعلى تأثرنا بالفكر الغربي؛ ولقد نفّذت هذه الأوامر بإقامة مدرسة القرية المجانية، و «مدرسة تحت السندانية» وغيرها من المؤسسات التربوية. وفي هذه المناسبة قوّم جرجي زيدان حركة الكهنة التعليمية إذ قال: «أما المدارس النصرانية فأقدمها في لبنان، غير ما كان منها في حلب للرهبنات المختلفة، وللموارنة فضل السبق بإنشاء المدارس في لبنان من عهد بعيد في إهدن وحقوة وقرقاشة في شمال لبنان»⁽¹⁶⁾؛ كما بنى اليسوعيون مدرسة عينطورة سنة 1734⁽¹⁷⁾.

(13) محمد كردعلي: خطط الشام، الجزء الرابع، دمشق، 1926، ص 80 - 81. انظر أيضاً: إبراهيم اليازجي في اعلام اللبنانيين في نهضة البلاد العربية، ص 132.

(14) Raphael: Le rôle du collège Maroniteromain dans l'orientalisme, Beyrouth, sans date, p. 53-65.

(15) Raphael: IDM, p. 16.

(16) جرجي زيدان: تاريخ آداب اللغة العربية، ج 4، مصر 1937، ص 38.

(17) Philip Hitti: History of Syrie, London, 1951, p. 674. et Raphael: IDM, p. 175.

وجامعة القديس يوسف سنة 1874⁽¹⁸⁾، وأنشأ البروتستانت عدداً من المدارس في بيروت والجبل؛ فلقد أسست مسز طومسون المدرسة الإنكليزية سنة 1860⁽¹⁹⁾، كما أسست الجامعة الأميركية في بيروت وهي أهم صرح علمي بروتستانتى سنة 1866⁽²⁰⁾، وكان اسمها المدرسة السورية الإنجيلية.

4 - الترجمة

لعبت الترجمة الدور الأكبر في حضارتنا العربية والإسلامية منذ انبلاج فجرها المشرق؛ فالترجمة بمعناها اللغوي هي نقل الأفكار من لغة إلى لغة، أو هي تفسير الكلام بما يقابله في لسان آخر فنقول على سبيل المثال: *l'État est moi*، الدولة أنا أو أنا الدولة.

أما التعريب فيُراد به أن يتفوه العرب باللفظ الأعجمي على منهاجهم. وقد أقرّ المجمع العلمي العربي بدمشق قاعدة مقبولة لنقل الألفاظ الأجنبية إلى العربية، وهي أنه إذا كانت اللفظة مما عرفه العرب فيجب البحث عنها ونشرها. وإذا كانت مما استُحدث بعد العرب ولم يكن في الفاظهم ما يشبهها بأقل ملاسة نُظِرَ فيها، فإن وافقت الأوزان والحروف العربية كانت هي المُراد بلفظها، وإلا غُيِّرَ بعض حروفها أو حركاتها لتوازن العربية ويسهل اللفظ بها مثلاً: تلفون - تلغراف - ديموقراطية هرمية: Rormique، إلخ⁽²¹⁾.

والترجمة تزيل ما يفصل بين الأمم والقوميات، وتشكّل بالتالي المناخ الصحي للتمازج الحضاري بين الأقوام.

أما طرائق الترجمة فنختصرها بثلاث:

1 - الترجمة الحرفية.

2 - الترجمة بتصرف.

3 - ترجمة العبارة.

(18) حبّ بعض الأوساط في فرنسا وخارجها كالجامعة الفرنسية لمحاربة جمعية اليسوعيين، وفي عام 1773 حلّ البابا كليمان الرابع عشر الجمعية ولكنها أعيدت سنة 1814 في أيام البابا بيوس السابع.

(19) ينقل رويستون في كتابه الجزء الأول، ص 105 و106، وقائع امتحان حضره في المدرسة يقول: «ضمت المدرسة في ذلك الوقت تسعة عشر صبياً بين الثالثة عشر والعشرين من عمرهم، كانوا من طوائف مختلفة: روم أرثوذكس، روم كاثوليك، بروتستانت، ودروز، ولم يكن بينهم موارنة. أما الامتحان فكان في غاية الدقة واشتمل على الدروس الابتدائية والتكميلية في اللغة العربية مع تمارين كتابية والحساب والجبر والجغرافيا ومبادئ علم الفلك، وخصوصاً دروس في تاريخ الكتاب المقدس ومبادئ أما اللغة الإنكليزية فلا تُدرّس إلا لبعض التلاميذ المتقدمين في العلوم».

(20) جرجي زيدان: تاريخ آداب اللغة العربية، الجزء الرابع، ص 37 - 39. انظر أيضاً: أنيس النصولي: أسباب النهضة العربية في القرن التاسع عشر، بيروت، 1926، ص 5.

(21) جميل صليبا: «تعريب المصطلحات العلمية»، مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق، الجزء الأول، المجلد 28، كانون الثاني 1953، ص 29.

النقل عند العرب

لقد بدأ نقل العلوم الأجنبية إلى العربية في العصر الأموي أيام خالد بن يزيد بن معاوية بن أبي سفيان. أما ما تُرجم إلى العربية قبل تلك الفترة فيعود إلى المجالات الفكرية كالفلسفة والفكر الديني، مع الإشارة بأن العهد الجاهلي عرف بعضاً من النواحي العلمية كالطب البشري والبيطري والتنجيم والفلك.

فالعهد الأموي عرف خالد بن يزيد خليفةً كما عرفه عالم كيمياء؛ فلقد ذُكر بأنه حاول تحقيق رغبته في تحويل بعض المعادن إلى ذهب فاشتغل بالكيمياء؛ وأورد ابن خلكان في وفيات الأعيان: «أن خالد بن يزيد وضع عدة رسائل في الكيمياء». ويقول ابن النديم في الفهرست «إن ماريوس الراهب ترجم كتاباً في الكيمياء عن اليونانية إلى اللغة العربية». وهو أول كتاب علمي في الإسلام نُقل إلى العربية. أما في العهد العباسي فقد تبوّأت الترجمة منزلة رفيعة في المستوى والأهمية، بحيث نستطيع أن نميزها بثلاث مراحل:

- المرحلة الأولى: (من عهد المنصور إلى عهد الرشيد) بين 136هـ - 750م، إلى 193هـ - 808م. وفي تلك الفترة أصبحت للترجمة وظيفة رسمية وتركزت على الطب. (مرض الخليفة المنصور) والتنجيم والفلك (ضبط الزمن).

- المرحلة الثانية: من خلافة المأمون 198هـ - 813م. إلى بداية القرن الرابع الهجري.

- المرحلة الثالثة: في القرنين الرابع والخامس الهجريين، مع الإشارة إلى تصنيف المترجمين إلى طبقات. ومن أهم من اشتغل بالترجمة هو حنين بن إسحق (808 - 873م).

أما دوافع الترجمة في الإسلام فكثيرة منها على سبيل المثال لا الحصر:

- احتكاك العرب بغيرهم من الأمم والثقافات.
- حاجة العرب إلى العلوم الأخرى.
- ما جاء في القرآن الكريم من حُضٍّ على طلب العلم⁽²²⁾.
- حُضُّ الرسول على طلب العلم⁽²³⁾.
- رعاية الخلفاء للعلماء.

(22) ﴿يرفع الله الذين آمنوا منكم، والذين أوتوا العلم درجات﴾ سورة المجادلة، الآية 58. سورة العلق، الآية رقم 1 ﴿اقرأ باسم ربك الذي خلق﴾.

(23) السيرة النبوية: عرض الرسول على قريش أن يفندي كل أسير نفسه بتعليم عدد من المسلمين القراءة والكتابة. من الأحاديث النبوية: اطلب العلم ولو في الصين. العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة.

- أما آثار الترجمة فعديدة نوجز بعضاً منها:

- في اللغة: مفردات، توسيع باب الاشتقاق، والدلالات على أشياء ومعان واقتباس، ألفاظ أعجمية ومصطلحات.

- في الفلسفة: وفي هذا الباب يُلاحظ اشتداد تحامل المستشرقين على الفلسفة العربية؛ فلقد ذكر بعضهم ومنهم أرنست رينان Renan أن «الفلسفة العربية هي فلسفة يونانية مكتوبة بأحرف عربية».

- في العلوم: ما يتعلق بالعلوم عند العرب فلم تبدأ من الصفر، إنما بدأت مما أخذوه من العلوم اليونانية والهندية.

إن الآثار الكبيرة التي تركتها حركة الترجمة هي التي نجدها عند العباسيين في جميع الميادين، وتكفي الإشارة إلى علم الكلام والفرق الكلامية، وأهمها المعتزلة والأشعرية اللتان اعتمدتا في شرح العقائد الدينية على الأدلة العقلية مستمدتا ذلك من الفلسفة وعلم المنطق، كذلك الصوفية في الإسلام. كل ذلك كان من أثر الترجمة عن الحضارات الغربية.

أما الترجمة في حركتها الحديثة والمعاصرة فقد كانت عن طريق المدارس والدوريات. وظهور الرومنسية والرمزية في المجتمعات الثقافية العربية، كانت عبارة عن منابر ومجتمعات ضيقة لفئات درست في تلك المؤسسات وبخاصة الفرنسية منها، إضافة إلى من اهتم بنقل المصطلحات العلمية، وظهر ذلك جلياً في حقل التأليف المعجمي في القرن العشرين.

إنه لمن الواضح أن المستشرقين أثروا، وربما لا يزالون يؤثرون على مجرى الأفكار في العالم الغربي، وأن ما كتبوه كان قطعاً المحور الذي تحركت حوله الأفكار التي نشأت عنها حركة النهضة في أوروبا، كذلك نجد أثر المنتقدين للحضارة الإسلامية في تحريك لا بل في تغريب أعلامنا مثل الأب لامانس الذي لامس إنتاجه ثقافتنا إلى حد ما. وكما حصل في الفترة التي نشر فيها طه حسين كتابه في الشعر الجاهلي على غرار ما تقتضيه نظرية المستشرق مرجليون قبل سنة من صدوره، والذي واجهه مصطفى صادق الرافعي وردّ فيه أقواله.

في الطرف المقابل، نجد المستشرقين المادحين مثل رينو، الذي ترجم جغرافية أبي الفداء 1273 - 1331م. في أواسط القرن الماضي، ودوزي الذي أضاع بقلمه الأنوار العربية في إسبانيا، وسيديو الذي عمل جاهداً من أجل أن يحقق للفلكي العربي أبي الوفاء لقب المكتشف لما يسمى عِلْمُ الْهَيْئَةِ^(*)، كذلك بلاتايوس الذي كشف عن المصادر العربية لـ الكوميديا الإلهية، فهؤلاء كتبوا لنصرة الحقيقة العلمية.

(*) القاعدة الثانية لحركة القمر. «علمٌ يُبحث فيه عن أحوال الأجرام السماوية».

وهنا يسعنا القول بأن الأثر الغربي على حضارتنا كان في مرحلتين:

1 - إن الغرب اكتشف الفكر الإسلامي في مرحلة القرون الوسطى قبل توما الأكويني (1225 - 1274م) وبعده؛ إذ نهل من حضارتنا وعمل على إغناء ثقافته ونهضته الأوروبية.

2 - المرحلة الكولونيالية والحديثة، وقد تعاملت مع الفكر الإسلامي من جديد، وفي إطار ثقافي جديد بهدف سياسي استراتيجي، هنا بدأ العمل المؤسسي للاستشراق، ليضع ويرسم الأطر السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية والدينية للعلاقات بين الشرق والغرب تحت عنوان الكولونيالي، مع الإشارة إلى وجود بعض الجهود العلمية ومساهماتها في تكوين الرصيد الحضاري الإنساني. وفي هذا المجال أذكر المستشرقين سيديو وغوستاف لوبون اللذين تميّزا بإنتاجهما في البحث عن الحقيقة العلمية. وكانت هذه المرحلة مرحلة دراسة التراث العربي التي اتسمت بالريبة والشك نتيجة أعمال البعض من المستشرقين؛ إذ نسبوا آثاراً علمية لعلماء عرب ومسلمين إلى علماء غربيين مثل: نظرية دورة الدم الصغرى للطبيب العربي ابن النفيس (1210 - 1288م) والتي نُسبت إلى العالم الإنكليزي وليم هرفي. وكان ابن النفيس قد سبقه بأربعة قرون⁽²⁴⁾.

ونرى أن العرب والمسلمين بعد انقضاء أربعة قرون على موت ابن خلدون أبي علم الاجتماع، في الغرب، متأثرين تأثيراً كبيراً بالحضارة الأوروبية، وخصوصاً في النتاج الفكري لمسلمي القرن التاسع عشر بين القاهرة وبيروت.

وبالرغم من عدم التوازن في العلاقة اليوم، فإن العرب يتطلعون دوماً نحو الآخر. وإذا كان صحيحاً أن لكل حضارة دورها في تكوين العصر اللاحق (الآتي) فإن للحضارة العربية دورها الأبرز الذي لا يمكن إغفاله.

لقد عاصرت بدايات هذا القرن رؤى فكرية أكثر تحديداً؛ إذ كتب محمد رشيد رضا (1865 - 1935م) في الردّ على كتابات إميل درمنغهام عن النبي ﷺ. ورفض أحمد شفيق باشا الرؤية الغربية الاستشراقية لمسألة الرق في الإسلام، وعمل محمد فريد وجدي وطنطاوي على إثبات عقلانية الحل الإسلامي للمشكلات المعاصرة⁽²⁵⁾، في مواجهة ما اعتُبر موقفاً استشراقياً غير عقلاني عن الإسلام المعاصر وقضاياها، حتى إذا كانت ثلاثينات هذا القرن فَقَدَ النقاش طابعه الهاديء نسبياً ليتحول إلى اتهام مجرد للاستشراق الغربي في كل شيء، ولا تزال هذه النزعة سائدة حتى اليوم عند الكثيرين من العرب والمسلمين، وبالتالي فهناك اقتران دائم في أذهان الناقضين للاستشراق والمشككين في علميته بين الاستشراق والتبشير. وكتاب محب الدين الخطيب الغارة

(24) مالك بن نبي: إنتاج المستشرقين وأثره في الفكر الإسلامي الحديث، دار الإرشاد، بيروت، 1969، ص 10.

(25) رضوان السيد: «ثقافة الاستشراق ومصادره، وعلاقات الشرق بالغرب»، مجلة الفكر العربي، العدد 31، السنة الخامسة، معهد الإنماء العربي، بيروت، آذار 1983.

على العالم الإسلامي، وكتاب فروخ والخالدي التبشير والاستعمار مثلاً وواضحاً على الأمر، وهناك إحساس دائم بأن المشرق العربي ليس في وسعه أن يكون حسن النية أو علمياً، فمقولة «إن الشرق شرق والغرب غرب ولن يلتقيا» هي السائدة. إن رد فعلنا ظهر في صورتين:

- 1 - تبني الحضارة الغربية بجميع ألوانها فنية وعلمية وسلوكية اجتماعية.
- 2 - بكاؤنا على الاطلال دون أن ننتج غير آداب الفخر والتمجيد لغابرنا السعيد.

بدايات الاستشراق

تختلف الآراء حول العلاقات بين الشرق والغرب وتاريخها؛ فثمة من يقول بأن موضوع الاستشراق هو موضوع قديم ويعود إلى زمن بعيد بدأ منذ آلاف السنين يوم أخذ اليونان والرومان يتوافدون نحو الشرق بغية غزوه. ولعل الإسكندرية التي تُعتبر من أهم المنائر التي جرى فيها الاتصال الفكري بين الشرق والغرب⁽²⁶⁾ هي السبابة في هذا المجال، ويحدد البعض بأن التمازج الفكري والبشري الناتج عن الاتصال الحضاري والسياسي والديني كان بعد موقعة وادي لكة حيث نزل طارق بن زياد (ت 102هـ/720م) إلى الشاطئ الإسباني في رجب 72هـ - 728م. هذا التاريخ يعتبره البعض بداية الاستشراق، ورأي آخر يقول بأن خسارة العرب بقيادة عبد الرحمن الغافقي⁽²⁷⁾ في موقعة بواتيه أو بلاط الشهداء أمام شارل مارتل عام 114هـ - 732م⁽²⁸⁾، هي بداية تاريخ انهيار الشرق أمام الغرب وبداية الاستشراق، مع الإشارة بأن التلاقح والتمازج الفكري حصل بعد احتلال الغرب صقلية وجنوبي إيطاليا والاندلس؛ إذ لعبت غرناطة وإشبيلية والقيروان دوراً مهماً فيه⁽²⁹⁾. ثم جاءت الحروب الصليبية حسبما يذكر ميشال جحا في كتابه الدراسات العربية والإسلامية في أوروبا⁽³⁰⁾ ليؤرخ أيضاً بداية استشراقية؛ فيما رأي آخر يقول: إن بداية الاستشراق الرسمي ترافق مع صدور قرار مجمع فيينا الكنسي سنة 1312م، بإنشاء عدد من كراسي اللغة العربية في عدد من الجامعات الأوروبية⁽³¹⁾. وهنا تجدر الإشارة إلى أن أثر الفكر الغربي السياسي والاقتصادي على العلاقات بين الشرق والغرب أدى إلى استعمار القسم الأكبر من أقطار

(26) مصطفى نجيب فواز: «الاستشراق»، دراسات عربية، العدد 4/3، السنة 28، ك 2/ شباط 1994.

(27) إبراهيم بيضون: الدولة العربية في إسبانيا، دار النهضة العربية، بيروت، 1987، ص 68، 27، 201.

(28) مصطفى نجيب فواز: المرجع المذكور آنفاً.

(29) أحمد مختار العبّادي: في التاريخ العباسي والاندلسي، دار النهضة العربية، بيروت، 1972، ص 293 - 294.

(30) ميشال جحا: الدراسات العربية والإسلامية في أوروبا، الطبعة الأولى، معهد الإنماء العربي، بيروت، 1982، ص 3.

(31) مصطفى ماهر: الدراسات الإسلامية والعربية في الجامعات الألمانية لرودي بات مترجم، القاهرة، 1967، ص 11. انظر: إدوارد سعيد: الاستشراق، ص 8. وانظر أيضاً: محمد حمدي زقزوق: الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري.

العرب، خصوصاً على يد فرنسا وبريطانيا. وفي أواخر القرن الثامن عشر كان مشروع نابليون (1769 - 1821م) في الشرق 1798 - 1801م. حمل معه عدداً كبيراً من المستشرقين الفرنسيين واليهود لمساعدته على تحقيق أهدافه في بلاد العرب إلى جانب خصمه الإنكليزي أوليفر كرومويل (1599 - 1658م) الذي أبدى اهتماماً كبيراً بشؤون اليهود، وقدم لهم التسهيلات مع البوروتانيين الإنكليز^(*) القائلين: «إن الأمة الإنكليزية مع سكان الأراضي المنخفضة، سيكونون أول الناس وأكثرهم استعداداً لنقل أبناء إسرائيل وبناتها إلى الأراضي الموعودة لأجدادهم إبراهيم وإسحق ويعقوب، كي يصبح إرثاً دائماً لهم»⁽³²⁾.

تبين دراسة هذه المؤشرات الأهداف الاقتصادية والسياسية والديمقراطية التي أرادها المستعمر من خلال توطين اليهود في فلسطين. وفي واقع الأمر، فإن فلسطين قد شهدت ابتداءً من المنتصف الثاني للقرن الثامن عشر والقرن التاسع عشر والقرن العشرين حركات ديمغرافية واقتصادية وسياسية واكبت التوسع الغربي الاستشراقي، قامت بها مجموعات من التجار وعلماء الآثار والمستشرقين والرحالة والمغامرين ترتب عليها نتائج سياسية خطيرة.

وهكذا نجد أن غرب الأندلس والمغرب والمشرق العربي والإسلامي والصليبيين والبيزنطيين شكّلوا حركة واسعة لنقل علوم الشرق إلى الغرب في العصر الذهبي الإسلامي، وانعكس الدور لكون بضاعتنا رُدت إلينا في عصر الانحطاط والتشرذم العربي والإسلامي في بلاد العرب. وهنا تجدر الإشارة إلى بعض الرومنسيين⁽³³⁾ الذين تناولوا الاستشراق من منطق أدبي أو فكري أو ثقافي⁽³⁴⁾ دونما بحث في العمق الاستشراقي السياسي والاقتصادي والاجتماعي وحتى الثقافي الهادف إلى زعزعة الثقة في تراثنا والمعرفة به، كيف لا ونحن نجد علماء السياسة في الغرب يبنون سياستهم على التوسع ويتطلعون إلى قوة الدولة باتساع أرضها وما تحمله من ثروة طبيعية وبشرية تصب نتائجها وفوائدها في خزائن الدول والأمم الأوروبية والأميركية. هؤلاء العلماء الذين اشتغلوا بالجيوپولتيكا اتبعوا سياسة القوة والسيطرة أمثال فريدريك راتزل، القائل بأن مساحة الدولة هي مقياس لقوتها، نجد أيضاً ألفرد ماهان صاحب نظرية «الموقع البحري» وكذلك البريطاني ماك كيندر صاحب نظرية «قلب العالم»، وسواهم الكثير ممن يضيق المجال عن ذكر أسمائهم ونظرياتهم ومشاريعهم الاستعمارية.

(*) هي حركة أسست وتهدف إلى مساعدة اليهود على الاستيطان في فلسطين عام 1649م.

(32) حسين مؤنس: «الحضارة، عالم المعرفة، العدد الأول، كانون الثاني، 1978، ص 81 - 121.

(33) نجيب عتيقي: المستشرقون، الطبعة الثانية، دار المعارف، مصر، 1947، ص 120 وما يليها.

(34) مجلة الفكر العربي، «الاستشراق»، العدد 31 - 32.

أما العرب الرومنسيون والكلاسيكيون فإنهم يتناولون الاستشراق بشكل فكري مستقل⁽³⁵⁾ أو يصورون من اشتغل في تراثنا من المستشرقين الغربيين بأنهم أصحاب فعل وأخلاق رفيعة، سموا عن الأهداف اللاإنسانية ونسوا أو تناسوا خزائن «الكي دورسية» في باريس ومراكز التوثيق، الأرشفة وغرف التجارة ومراكز الأبحاث الداخلية والماوراء البحار سواء كان في فرنسا أو بريطانيا أو ألمانيا أو روسيا وحديثاً الولايات المتحدة الأميركية وإيطاليا.

ومن الذين اهتموا بالدراسات العربية باختصار في بريطانيا وليم بادويل، إدموند كاستل، إدوارد بوكول، سيمون أوكلي، جورج سيل، تشارلز ولكنز، جوهان لويس، بوركهارت، إدوارد وليم لاين، إدوارد هنري بالمر، رتشارد بورتين، روبنسون سميث، وليم مور، تشارلز مور واطسن، الليدي بلنط، تشارلز ليال، تشارلز دواني، توماس أرنولد، ستانلي لاين بول، جاي لي سترانج، لورانس، مرجوليوث، رينولد ألن نكلس، أوليري.

وهناك مجموعة منهم في مرحلة ما بعد الحرب العالمية الثانية.

أما أهم الجامعات البريطانية التي لحظت كراسي الدراسات العربية، فهي:

أكسفورد - كمبردج - أدنبره - دورهام - لندن - مانشستر.

هذا، عدا المراكز الثقافية والجمعيات والمكتبات والمنشورات والمجلات ودور النشر العربية في بريطانيا.

أما في إيطاليا، فنجد أن الدراسة العربية الاستشراقية قد احتلت حيزاً مهماً في خزائنها ومعاهدها وجامعاتها وعلمائها ومفكرها، أذكر بعض المستشرقين الإيطاليين: الأب لودوفيكو ماراتشي، أوجينو غريفي...

والجامعات والمعاهد الإيطالية التي تُعنى بتدريس اللغة العربية والحضارة الإسلامية، هي: جامعة روما - نابولي - ميلانو - فينيسيا - بالإضافة إلى المراكز الثقافية والمكتبات العربية والإسلامية في إيطاليا⁽³⁶⁾.

أيضاً فقد كان للاستشراق والدراسات أهمية كبرى في إسبانيا حيث اشتهرت جملة من علمائها ومن الكتاب المستشرقين، نذكر منهم:

غينغوس، كالدرون، أي غونزالس، فرنسيسكو سيمونات، ويناتو، الأركون، بلاسيوس، بلانسيا، أورساني، باريت وسواهم.

أما الجامعات الإسبانية التي اهتمت بالاستشراق، فهي:

(35) ميشال جحا: الدراسات العربية والإسلامية، الطبعة الأولى، معهد الإنماء العربي، بيروت، 1982، ص 5 - 6 - 7 - 304 - 305.

(36) علي الشامي: عن ندوة قُدِّمها في مؤتمر التربية الإسلامية، آذار 1981، بيروت.

مدريد، برشلونة، غرناطة، سرقسطة، إشبيلية، بالإضافة إلى المراكز الثقافية والمعاهد التي تُعنى بالحضارة العربية والإسلامية والمكتبات والمحفوظات العربية في إسبانيا.

كذلك اهتم الألمان بالاستشراق والدراسات والأبحاث العربية والإسلامية. نذكر بعض المستشرقين الألمان: رايسكة، فرايتاج، فلوجل، إيفالد، فايل، هونرباخ، بيرش.

ويكثر عدد الجامعات الألمانية وتكاد تكون جميعها، مثال جامعة: برلين، فرانكفورت، مونستر، كيل، ميونخ، هايدلبرغ، إلخ... بالإضافة إلى المراكز الثقافية ودور النشر التي تُعنى بنشر كتب الاستشراق والمكتبات العامة والترجمات والدراسات القرآنية في ألمانيا.

أما الاستشراق الفرنسي فهو منتشر في جميع الجامعات الفرنسية؛ إذ إن في معظم جامعاتها توجد أقسام للدراسات الإسلامية؛ كما توجد أيضاً مراكز الأبحاث والتوثيق ودور النشر المهمة بالاستشراق، ومنها: جامعات باريس، ليون، إكس بروفنس، بوردو، ليل وغيرها... .

وإذا ما وضعنا جانباً النواحي السياسية والاقتصادية لعلاقة الغرب بالعالم الإسلامي، وهي نواح تشكّلت عبر مراحل تاريخية متفاوتة في الزمن والأنماط إلا أنها آلت في معظمها إلى إحكام سيطرة الغرب على الشرق الإسلامي، وجدنا الجوانب الثقافية - الاجتماعية لهذه العلاقات تكشف عن طبيعة الصراع الخاص والذي يتجاوز البُعدين العقائدي والحضاري لمواجهة الإسلام والغرب، وقد تجسدت فيه ظواهر التعامل والتمازج والتفاعل بين الثقافات، تبرز أهميتها في تقبّل البعض ورفض البعض الآخر لهذه الثقافات والعلاقات.

لقد اصطدمت هذه النتائج بمقاومة المجتمع الإسلامي، المتسلح بتراثين كاملين ثقافي وحضاري وبنظام من القيم والعادات والتقاليد. ورفضت منطق الغلبة الثقافية الغربية المتعارضة مع تعاليمها وقيمها، موضحة بذلك الغاية الأساسية للتعامل الحضاري الغربي القائم على ترسيخ أنظمة الفكر الغربي السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية والمدنية التي نجدها في الركائز التالية:

أولاً: تهميش الثقافات والحضارات الأخرى والعمل على تشويهها⁽³⁷⁾.

ثانياً: هي الهيمنة والمركزية التي تعتبر أوروبا مركزاً أساسياً للنمو ولانتشارين الثقافي والحضاري.

ثالثاً: الأنظمة السياسية المطبقة في أقطار الوطن العربي: النظام الديمقراطي - النظام الرئاسي - النظام البرلماني.

(37) «قضايا التبعية الإعلامية والثقافية في العالم الثالث»، عالم المعرفة، ص 34 - 43.

رابعاً: الأنظمة الاقتصادية لأقطار الوطن العربي: الاقتصاد الحرّ في لبنان وبعض الدول العربية. الأنظمة الموجهة في بعضها الآخر. النظام المصرفي.

خامساً: المناهج والأنظمة التعليمية والتربوية.

سادساً: النظام العمراني والمدني Urbanisme.

سابعاً: النمط والسلوك الاجتماعي (مأكل، ملبس، علاقات اجتماعية، بعض العادات الغربية المكتسبة).

ثامناً: ظهور جوانب إيجابية جمّة سواء على الصعيد العلمي أو الحضاري أعطت دفعاً كبيراً في مجالات الوعي الفكري والاستفادة من التقدم العلمي والتكنولوجي علّه يفيد شرقنا في العود إلى ركب الحضارة الإنسانية وأخذ الجوانب الإيجابية منها، لكون التمازج الحضاري هو نتاج إنساني طبيعي للعلاقات بين الشعوب، ولكون الحضارة هي ملك ونتاج الإنسانية جمعاء. من هنا علينا الانفتاح عليها ونهل ما يستطيع الفرد منا أو المؤسسات توظيفه في خدمة الشعب والوطن.